

فتح القدير

لما ذكر سبحانه حال المؤمنين وما يقول إليه أمرهم ذكر مثلاً للكافرين فقال : 39 - { والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة } المراد بالأعمال هنا : هي الأعمال التي من أعمال الخير كالصدقة والصلة وفك العانة وعمارة البيت وسقاية الحاج والسراب : ما يرى في المفاوز من لمعان الشمس عند اشتداد حر النهار على صورة الماء في ظن من يراه وسمي سراباً لأنه يسرب : أي يجري كالماء إلا أنه يرتفع عن الأرض حتى يصير كأنه بين السماء والأرض قال أمرؤ القيس :

(ألم أنف المطبي بكل خرق ... طويل الطول لمع السراب) .
وقال آخر :

(فلما كفنا الحرب كانت عهودهم ... كل مع سراب بالفلا متائق) .
والقبيعة حمع قاع : وهو الموضع المنخفض الذي يستقر فيه الماء مثل جيرة وجال قاله الheroi وقال أبو عبيد : قيعة وقاع واحد قال الجوهرى : القاع المستوى من الأرض والجمع : أقوى وأقوى وقيعان صارت الواو ياء لكسر ما قبلها والقبيعة مثل القاع قال : وبعضهم يقول هو جمع { يحسنه الظمان ماء } هذه صفة ثانية لسراب والظمان العطشان وتخصيص الحسبان بالظمان مع كون الريان يراه كذلك لتحقيق التشبيه المبني على الطمع { حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً } أي إذا جاء العطشان ذلك الذي حسبه ماء لم يجده شيئاً مما قدره وحسبه ولا من غيره والمعنى : أن الكفار يغولون على أعمالهم التي يظنونها من الخير ويطمعون في ثوابها فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيئاً لأن الكفر أحبطها ومحا ثوابها والمراد بقوله : { حتى إذا جاءه } مع أنه ليس بشيء أنه جاء الموضع الذي كان يحسنه فيه ثم ذكر سبحانه ما يدل على زيادة حسرة الكفرة وأنه لم يكن قصاري أمرهم مجرد الخيبة كصاحب السراب فقال : { ووجد الله عنده فوفاه حسابه وله سريع الحساب } أي وجد الله بالمرصاد فوفاه حسابه : أي جزاء عمله كما قال أمرؤ القيس :

(فولى مدبراً يهوي حيثاً ... وأيقن أنه لا يحيى الحساباً) .

وقيل وجد وعد الله بالجزاء على عمله وقيل وجد أمر الله عند حشره وقيل وجد حكمه وقضاءه عند المجيء وقيل عند العمل والمعنى متقارب وقرأ مسلمة بن محارب بقيعاً بهاء مدوره كما يقال رجل عزهاء وروي عنه أنه قرأ بقيعات بتاء مبسوطة قيل يجوز أن تكون الألف متولدة من إشباع العين على الأول وجمع قبيعة على الثاني وروي عن نافع وأبي جعفر وشيبة أنهم قرأوا الظمان بغير همز والمشهور عنهم الهمز

